نظرات في

البعد الزماني لنزول القرآن

الأستاذ الدكتـور

عـدنان محمـد زرزور

أستاذ التفسير

كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية

جامعـة قطـر (سابقاً)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

أولاً : نزول القرآن : هذه اللحظة التاريخية

يعد نزول القرآن الكريم أعظم وقائع التاريخ الإنساني منذ آدم ونوح -عليهما السلام- وحتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. ويكفي للدلالة على ذلك -في السياق التاريخي نفسه بعيداً عن أي بحث في (المضامين القرآنية) التي مازالت تؤكد ذلك وترتقي به جيلاً بعد جيل - أن ننظر في الوجهة التي أخذها هذا التاريخ -الإنساني- بعد هذا النزول أو بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

إن هذه الوجهة هي التي انتهت بالعالم كله اليوم إلى الصورة التي هو عليها ، والتي ما كان لها أن تكون كذلك لولا هذا النزول الكريم والبعثة الشريفة؛ بدءاً من انسياح الإسلام في الأرض ، والقضاء على دولة الأكاسرة في الشرق ، والقياصرة في الغرب.. وما تبعه من سيادة الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ نحواً من ثمانية قرون .. مروراً بالحروب الصليبية وسائر الحروب التي شنت على العالم الإسلامي .. وبحركة الكشوف الجغرافية التي جاءت في أعقاب خروج المسلمين من إسبانيا أو شبه جزيرة الأندلس، وبسبب من هذا الطرد أو الخروج (١) .. وأخيراً -وليس آخراً-

(١) انظر الفصل المهم الذي كتبه ، « آرنست باكر » عن (الحروب الصليبية) في كتاب (تراث الإسلام) تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد ص ٧٣ - ١٢٣ وبخاصة الفقرة الأخيرة من هذا البحث . (علاقات أوروبا بآسيا : ١٢٠ - ١٢٣) ومعلوم أن (كولومبوس) لم يجد عوناً على مشروعه « لاستنقاذ » بيت المقدس !! عن طريق (مهاجمة الإسلام من الخلف) - على حد قول باركر - سوى من « فردينانيد وازبيلا » ملكي أراغون وقشتاله ، اللذين سقطت غرناطه - آخر معاقل المسلمين في شبه جزيرة أيبريا - على أيديهما ، بعد أن زهاهما هذا « الانتصار » التاريخي الكبير ، فتقدما لمساعدة كولومبوس في حين أحجم عن ذلك سائر الملوك والأمراء والنبلاء الأوروبيين . وهي الرحلة التي انتهت « بأن الإسبان الذين اقتفوا أثر كولومبوس قد غنموا للمسيحية قارة » وأن الغرب أعاد رجحان الميزان لصالحه بطريقة لم تكن تخطر له ببال ! على حد قول باركر .

قيام الحضارة الأوروبية التي ماتزال سائدة على مسرح التاريخ، وصلة هذا القيام بهذا كله. وبالمنهج العلمي الذي جاء به المسلمون. والإنجازات الثقافية والعلمية التي حققوها خلال العصر -الأوروبي - الوسيط.

وإذا كانت لحظة النزول(٢) قد قسمت التاريخ إلى مرحلتين أو حقبتين: ما قبل النزول ، وما بعد النزول - وهما اللتان أشير إليهما بقوله تعالى في وصف القرآن :﴿ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(سورة فصلت :٤٢) فإن النزول نفسه لم يحصل مرة واحدة، كما كانت عليه الحال في الكتب السماوية السابقة. ولكنه امتد لفترة تقرب من ربع قرن. وإذا سمّينا المرحلة السابقة على النزول بالبُعد التاريخي، والمرحلة التي تلي عصر التنزيل بالبعد المستقبلي -وإن كانت التسمية الأولى صالحة للمرحلتين- فإن زمن النزول الممتد نفسه، أو المشار إليه، يمكن تسميته بالبعد الزماني للنزول أو التنزيل ، علماً بأن هذا البعد أو الفترة الزمنية الممتدة للنزول عُبر عنها عند المفسّرين والمشتغلين بعلوم القرآن: بالنزول المنجّم ، أي نزول القرآن على نجوم بمعنى دُفعات ومرات متعددة.

ونؤكد هنا على ما أشرنا إليه قبل قليل من انفراد القرآن بالنزول على هذا النحو من بين سائر الكتب التي كانت تنزل على الأنبياء السابقين مرة واحدة. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾(سورة الفرقان :٣٢-٣٣) إن التأكيد على هذه الفرادة مهم في هذا السياق، وكما سيتبين لنا بعد قليل في ضوء ما نشير إليه من حكم هذا التنجيم ، وبخاصة ماسوف نضيفه في هذا الباب إن شاء الله. وعلى الرغم من أن العلماء فهموا من الآية السابقة أن سائر كتب الله تعالى

(٢) كانت أول آيات القرآن نزولاً يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة مضت من شهر رمضان. الموافق للعاشر من آب (أغسطس) عام ٦١٠ م. انظر تحقيقاً حول هذه النقطة في كتاب: الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين المباركفوري. ص ٧٥ - ٧٦.

-أو كتب الأنبياء السابقين- نزلت جملة واحدة «حتى كاد أن يكون إجماعاً»(٣) بحسب عبارة السيوطي؛ فإن بعضهم أنكر ذلك وقال إنه لا دليل عليه، بل الصواب أنها نزلت مفرقة كالقرآن! وقد صوّب السيوطي رأي الجمهور بدليل هذه الآية. قال: «أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قالت اليهود: يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى؟ فنزلت الآية.. وأخرجه من وجه آخر عنه بلفظ: قال المشركون. وأخرج نحوه عن قتادة والسدّي». ثم أوضح أن الآية المذكورة وإن لم تصرح بذلك، فإنها دالة على صحته، لأن الله تعالى لم يردّ عليهم، بل عدل إلى بيان الحكمة في هذا التنزيل «ولو كانت الكتب كلها نزلت مفرقة لكان يكفي في الرد عليهم أن يقول: إن ذلك سنّة الله في الكتب التي أنزلها على الرسل السابقين، كما أجاب بمثل ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧) فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ (سورة الفرقان: ٢٠)، وقولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ (سورة الإسراء: ٩٤) فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾(٤) (سورة الأنبياء: ٧).

وقد اتسع النزول المنجم للقرآن الكريم لأسباب النزول، كما اتسع للنسخ عند من يرى وقوعه في القرآن، وهم جمهور العلماء والمفسّرين. كما كان لهذا التنجيم حكمه المعهودة في كتب التفسير وعلوم القرآن. ونقف هنا عند واحدة من هذه الحكم (٥)، وهي: الدلالة على إعجاز القرآن وإثبات مصدره، لأنه لها علاقة بما سنضيفه في هذا البحث، أو لأننا سوف نعود لتأكيد هذه الحكمة أو الدلالة من وجه آخر.

ثانياً: البعد الزماني للنزول وعدم اختلاف القرآن

نزل القرآن الكريم خلال هذه المدة الطويلة، وكانت كلما نزلت آية أو

---

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٢١).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٢٢).
(٥) من أهم هذه الحكم:

آيات قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ضعوها في مكان كذا من سورة كذا » وربما نزلت الآيات التي توضع في آخر السورة قبل الآيات التي توضع في أولها أو في مقدماتها، وربما لم يكتمل بناء بعض السور إلا في زمن ليس بالقصير. ومع هذا كله ، ومع أن النبي « صلى الله عليه وسلم » بشر لا يدري « ما ستجيء به الأيام ، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان(٦) فقد كان القرآن الكريم متّسقاً هذا الاتساق المعجز، وجاء منّسق الآيات والسور، محكم السّرد ، دقيق السبك، قوي الأسلوب . إن في ذلك جميعه دليلاً باهراً على أن هذا الكتاب الكريم تنزيل من حكيم حميد، قال تعالى :﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾(سورة النساء: ٨٢)

وهذا الاختلاف يكون من وجهين رئيسين:

الأول : من حيث النظم والأسلوب والبيان الذي لم يختلف في القرآن أو يتخلف في موطن من المواطن، وذلك على خلاف المعهود عند الكتّاب والأدباء أياً كان حظهم من التفوق، ومع تفرغهم للعمل الأدبي الواحد في زمن معين أو فترات متقاربة لا تصل في العادة إلى ما يقرب من ربع قرن ! ومع التقديم والتأخير ، واختلاف المناسبات والأحوال التي تم فيها وعليها نزول القرآن الكريم.

أما **الاختلاف الثاني** : فهو اختلاف المعاني والمضامين؛ فإذا لم تختلف

---

١ – تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، وإمداده بأسباب القوة والمجابهة أمام إعراض المعرضين ، وحملات المشركين ، ودسائس المنافقين ، وهي الحكمة التي نصّت عليها الآيات المشار إليها من سورة الفرقان ، لقد كان تجديد الوحي ، أو نزوله بالسورة بعد السورة ، والآيات بعد الآيات تأكيداً لنبوّته عليه الصلاة والسلام يوماً بعد يوم ، أو حالاً بعد حال . وكان يمثل في الوقت نفسه لوناً من ألوان الرعاية الإلهية التي تمدّه بأسباب الثبات والمضيّ فيما اختاره الله تعالى له ، وأمره به ، وصنعه – من أجله – على عينه سبحانه وتعالى .

٢ – تسهيل حفظ القرآن على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وإذا كان الله تعالى قد تكفل لرسوله بحفظه ، قال تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى ﴾ (سورة الأعلى : ٦) فإن المسلمين كانوا بحاجة إلى أن يعطوا فرصة تمكنهم من حفظه في الصدور ، وهو الحفظ الأول – والأهم – بوصفهم أمّة أميّة ، كما هو معلوم .

(٦) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (١/٦١) .

هذه المعاني عند أحد طيلة حياته، بل بقي المرء عند آرائه وأفكاره لم يعدّل منها شيء – وهذا في العادة بعيد– فهل يمكن لهذه الآراء والأفكار أن تكون مفهومة أو تأتي على نحو متّسق أو منسجم عندما يضم الكلام –الذي قاله في سنوات طوال– بعضه إلى بعض ، ويجمع في باب واحد، أو في فصول متفرقة؟ إن الحديث النبوي نفسه الذي لم ينطق فيه النبي الكريم عن هوىً أو بما يتعارض، هل يمكن أن يؤلَّف الآن على ذلك النحو الذي تألَّف –اجتمع أو جُمع– عليه القرآن؟ بل إن الحديث الشريف «وهو ما هو في روعته وبلاغته، وطهره وسموّه» والذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في مناسبات مختلفة «هل في مكنة أحد أن ينظم منه كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة ، من غير أن ينقص منه أو يتزيد عليه أو يتصرف فيه؟ »(٧) يقول الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني :« ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بثوب مرقع، وكلام ملفّق ينقصه الترابط والانسجام، وتعوزه الوحدة والاسترسال. . »(٨)

وفي المقابل يقول الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز :

« اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن الكريم فهي جمهرته، وتنقل بفكرك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرّتين : كيف بدأت؟ وكيف خُتمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت، وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها، ووطّأت أولاها لأخراها؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد ألبتّة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها قد نزلت نجوماً »(٩)

وقد أشار **الإمام الغزالي** إلى هذين الوجهين من وجوه الاختلاف المنفي عن

---

(٧) مناهل العرفان للزرقاني (١/ ٦٢) .
(٨) المصدر السابق .
(٩) النبأ العظيم : ص ١٤٩ .

القرآن.. وإلى وجوه أخرى قريبة أو مماثلة، حين سئل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ فقال رحمه الله:

«الاختلاف لفظ مشترك بين معان. وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه، بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن. ويقال: هذا كلام مختلف؟ أي لا يشبه أوّله آخره في الفصاحة، أو هو مختلف الدعوى.. أو هو مختلف النظم..» قال: «وكلام الله تعالى منزه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد في النظم.. وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة، فليس يشمل على الغث والسمين، وهو مسوق لمعنى واحد، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى».

أما كلام البشر فإن هذه الاختلافات تتطرق إليه «إذ كلام الشعراء والمترسّلين إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم، ثم اختلاف في درجات الفصاحة، بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين، ولا يتساوى رسالتان ولا قصيدتان، بل تشتمل قصيدة -واحدة- على أبيات فصيحة وأخرى سخيفة! وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة؛ لأن الشعراء والفصحاء في كل وادٍ يهيمون.. فتارة يمدحون الدنيا، وتارة يذمونها.. وتارة يمدحون الجبن ويسمونه حزماً، وتارة يذمونه ويسمونه ضعفاً! وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صرامة، وتارة يذمونها ويسمونها تهوراً!».

ثم يعلل الإمام الغزالي وجود هذه الاختلافات في كلام البشر -دون كلام الله تعالى- على الرغم من التنجيم الذي أشرنا إليه، فيقول:

«ولا ينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات، لأن منشأها: اختلاف الأغراض والأحوال. والإنسان تختلف أحواله، فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه، وتتعذر عليه عند الانقباض. وكذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخرى، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة».

ثم يقول : «**فلا يصادف إنسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة ، وهي مدة نزول القرآن فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم تختلف أحواله، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**»(١٠) .

ثالثاً : فوائد وحكم أخرى لتنجيم النزول :

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الحكمة ، وسواها وما يقرب منها –مما انطوت عليه كتب علوم القرآن– النقاط الجديدة التالية :

١ – توثيق حياة النبي صلى الله عليه وسلم ووقائع السيرة النبوية الشريفة:

لقد هيأ هذا النزول المنجم الفرصة لضم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى سائر قصص الأنبياء والمرسلين، وحياة الأمم السابقين ، وأحداث التاريخ الكبرى منذ آدم ونوح ، وهي الأحداث التي خُتمت بأعظم وقائع التاريخ الإنساني، وهي واقعة بعثة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه ونزول القرآن ، كما قلنا في مطلع هذا البحث.

لقد ارتقى القرآن الكريم بالسيرة النبوية : النبراس والمثل الذي يُحتذى إلى يوم الدين، ووقائع الجماعة الإسلامية الأولى في عهديها المكي والمدني، إلى مقام التواتر والتوثيق الإلهي. ولم يدع هذه الوقائع وتلك السيرة وحدها، دون أحداث التاريخ والأمم والأنبياء السابقين، إلى الرواة والقُصّاص والمؤرخين، بالغاً ما بلغت عدالتهم أو درجة ضبطهم وتوثيقهم.

إن التوثيق الذي منحه القرآن الكريم لحياة الأنبياء السابقين وقصصهم مع أقوامهم لم يبخل به عن سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين! **ولولا النزول المنجم للقرآن لما أدركنا كيف كان سيتم ذلك!**

بل إن هذا التنجيم لم يتسع لأحداث السيرة النبوية ومعالمها الكبرى ..

---

(١٠) الإتقان للسيوطي (٢/ ٣٤٤) .

كطريق من طرق التوثيق ارتقى بها إلى درجة التواتر فحسب، بل بوصفها كذلك قاعدة التاريخ الإسلامي وطليعته التي تقدمت (عمل) جيل التنزيل، أو التي تفاعل معها هذا الجيل نفسه. وفحوى ذلك أن هذا التنجيم اتسع للحديث عن السلوك والأعمال ، أو اتسع للحديث عن سنن الاجتماع الإنساني من خلال نفاذها ووقوعها في المجتمع الإسلامي طيلة حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومدّة نزول القرآن! أي من خلال البعد العملي أو التطبيقي لهذه السنن. في الوقت الذي أشار القرآن الكريم إلى هذا الوقوع أو النفاذ في مواطن (تاريخية) أخرى كثيرة من خلال (قصص الأنبياء) وتاريخ الأمم السابقة على الأمة الإسلامية، والتي كانت تأتي بدورها في السياق الملائم عبر هذا النزول المنجم.

لا غرو إذن أن تنزل سائر كتب الله تعالى على الأنبياء السابقين جملة واحدة، وأن ينفرد القرآن الكريم بنزوله منجماً خلال ما يوازي بناء جيل طليعي واحد من أجيال التاريخ.

٢ ـ الدلالة على أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين:

يدل هذا النزول المنجم في الوقت ذاته -أو من الطرف المقابل- على أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه لا نبي بعده، وأنه لا كتاب بعد القرآن يهيمن أو يوثّق! أو بعبارة أخرى: لما كان محمد بن عبدالله -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين، وكان كتابه آخر الكتب أو لا كتاب بعده يهيمن أو يوثق .. كان -لابد- من أن ينزل هذا الكتاب الكريم منجماً.. حتى يتسع لضم سيرة خاتم المرسلين! ولهذا فإن في وسعنا أن نرى في هذا النزول المنجم دليلاً بيّناً على أن **رسالة محمد صلى الله عليه خاتمة الرسالات وأنه لا نبي بعده** عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ تصويب حركة الامتثال والتطبيق:

اتسع هذا النزول المنجم لتصويب حركة تطبيق الأحكام والامتثال للشريعة، أو للدلالة على مواطن الخطأ ووجوه التقصير في تنفيذ الأحكام

والتشريعات. وفي هذا تأكيد بالغ الأهمية على ضرورة استجابة (الواقع) للوحي أو للنص استجابة تامّة غير منقوصة، ومن ثم لتقديم الصورة (الواقعية المثلى) -إن صح التعبير- لهذه الحركة عبر عصور التاريخ، أو التي يجب أن تُحتذى عبر هذه العصور، بعد أن قدم جيل التنزيل - وإن شئت قلت: جيل التنجيم الذي قام بالتطبيق وجرت عليه المراجعة والتصويب- النموذجَ الأفضل والمثالَ الذي يحتذى. لقد نزل القرآن تباعاً أو موقفاً في إثر موقف، يسجل على هذا الجيل ما وقعوا فيه من خطأ أو شاب عملهم من ضعف أو قصور، ويقفهم رأي العين أو في (الواقع) الذي عاشوه وعاينوه على سنن الاجتماع الإنساني في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والهزيمة والنصر، لا ليعلّمهم ويدربّهم على تغيير الواقع الفاسد أو المغلوط باتجاه (الواقع) المطلوب أو المرغوب فيه فحسب، بل ليدربّهم فوق ذلك على أن الواقع المؤلم أو المكروه والذي أفرزه مبدأ صائب أو الذي جاء في أعقابه وانبنى عليه، لا يجوز له أن يشكل مبرراً لتجاوز المبدأ أو للعودة عليه بالتحوير والتبديل! كما حصل يوم أحد على سبيل المثال[11].!

لقد نزل في هذا اليوم آيات قرآنية كما هو معلوم، منها في هذا الجانب الثاني وحده قوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩)

فقد أمرت هذه الآية الكريمة النبي صلى الله عليه وسلم بالتزام مبدأ الشورى على الرغم من أن الهزيمة التي لحقت بالمسلمين جاءت في أعقاب شورى النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، ونزوله على رأيهم في ملاقاة المشركين بظاهر المدينة - وليس في داخلها كما كان يميل إلى ذلك النبي الكريم عليه الصلاة والسلام- ولكن هذه الهزيمة لا يجوز لها أن تبررّ تجاوز

(١١) انظر: «في ظلال القرآن» للاستاذ سيد قطب رحمه الله، ص ٥٣٢ - ٥٣٣ (المجلد الأول).

هذا المبدأ أو هذا التشريع أو الانتقاص منه ، فضلاً عن تكريس نقيضه بحجة (الواقع) الذي أفرزه أو انبنى عليه!.

رابعاً : الوحي والواقع

والعجيب بعد هذا أن يزعم بعض الباحثين أن القرآن أو (الوحي) الإلهي الأخير كان استجابة (للواقع) ويعني به بالطبع (الواقع) الذي شهد التنزيل ، أي الذي كان قائماً في أواسط القرن السابع الميلادي في جزيرة العرب! أو في مكة والمدينة على وجه الخصوص! يقول الدكتور حسن حنفي – في معرض حديثه عن التراث – : « ليس التراث موجوداً صورياً له استقلال عن الواقع الذي نشأ فيه ، وبصرف النظر عن الواقع الذي يهدف إلى تطويره، بل هو تراث يعبر عن الواقع الأول الذي هو جزء من مكوّناته! » ويضيف : « وإن ما عبّر عنه القدماء باسم (أسباب النزول) لهو في الحقيقة أسبقية الواقع على الفكر، ومناداته له. كما أن ما عبر عنه القدماء باسم (الناسخ والمنسوخ) ليدل على أن الفكر يتحدد طبقاً لقدرات الواقع وبناء على متطلباته، إنْ تراخى الواقع تراخى الفكر، وإن اشتد الواقع اشتد الفكر »(١٢) ويفهم من (الفكر) في هذا السياق، أي في سياق الحديث عن أسباب النزول وعن الناسخ والمنسوخ، أن المقصود به (الوحي) وهو ما صرّح به في بعض كتبه الأخرى! قال: « إن الوحي نزل حسب متطلبات الواقع، أو كما يقول علماء الأصول: طبقاً لأسباب النزول ، وتبعاً لإمكانيات تقبله »(١٣) .

وندع هنا تسويته أو خلطه بين الكتاب والسنة أو النص والوحي من

---

(١٢) التراث والتجديد : موقفنا من التراث القديم للدكتور حسن حنفي ، ص ١٣ .

(١٣) قضايا معاصرة (١/ ٩٢) ، بل إن الدكتور حنفي يشتد في حملته على (النص) ! ويرى « أن مستقبل الثقافة العربية مرهون بالتحرر من النص ، والانطلاق في عالم الإبداع ، وأنها إذا ظلت أسيرة للنصوص فستبقى راكدة » ! كما نعى حظه بقوله « وكأنني لا أستطيع أن أنظر إلى العالم مباشرة دون أن أضع بيني وبين الواقع نصاً » قلت : لا يدري المرء كيف يمكن التعامل مع (الواقع) بغير النصوص ؟ أليست (اللغات) و (المعارف) كلها نصوصاً ؟ أم إن التعامل مع الواقع سوف يتم بغير طريق (القراءة) أو من غير طريق الفكر وقناة العقل ؟!!

جهة(١٤)، وبين المعارف التي خلّفتها لنا أجيال المسلمين السابقة من جهة أخرى . فالكتاب والسنة بوصفهما أصلين ثابتين هما لجميع العصور، وتخاطب بهما جميع الأجيال؛ وهما اللذان دار حولهما (التراث) الذي انحدر إلينا عبر العصور، وفيه الفهوم القويّة والكليلة، وما يصلح (للواقع) الراهن وما لا يصلح. أو بعبارة أخرى : تبدو في هذا التراث في الحقيقة ملامح (الواقع) الذي أثّر فيه أو أنتجه في عصر من العصور، علماً بأن هذا التراث –الإسلامي– له خصوصية ليست لسواه من (تراث) الأمم الأخرى؛ لأنه دار حول هذين الأصلين الخالدين! وهو الأمر الذي لا تتمتع به أمة أخرى من الأمم، حتى بات في وسعنا **أن نعرف التراث الإسلامي بأنه يتمثل في فهوم الأجيال السابقة للكتاب والسنة، ومحاولة تنزيل أحكامهما على (واقع) المجتمعات الإسلامية المتعدد عبر الزمان والمكان ، بالإضافة إلى ما قبله المسلمون من (تراث) الأمم الأخرى، أو جادلوهم فيه ، أو نافحوا عن الإسلام من خلاله .**

ندع هذا الخلط أو هذه التسوية التي وقع فيها الدكتور حنفي بين مستوى الوحي الإلهي الثابت ومستوى الاجتهاد والتفسير أو الفهم والتنزيل، وما يلحق به ويضاف إليه –في ضوء الوحي الثابت– من النقل والاقتباس

(١٤) نشير هنا قبل ذلك إلى أن مؤسس الفكر القومي السوري ، وبعض روّاد الفكر القومي العربي حاولوا منذ أكثر من ستين عاماً التأكيد بمختلف الصيغ والعبارات ، على أن الإسلام نبع من الأرض ! فقد حاول أنطون سعادة التمييز بين الآيات المكية (الروحية) والآيات المدنية (الاجتماعية والتنظيمية) – كما وصف كلاً منهما – فقبل الأولى ! ودعا إلى عدم الأخذ بالثانية لأنها أخذت في حسبانها واقع العرب وأحوالهم !! في الوقت الذي بشرّ « بدين – قومي – جديد يرتفع من الأرض إلى السماء » !!
انظر بحثاً معمقاً بعنوان : « الحداثة والأصالة في مختبر محدّد : أنطون سعادة نموذجاً » للكاتب السيد حازم صاغية في مجلة (أبواب) الصفحات ٦٢ – ٦٣ و ٨١ .. العدد ١٤ خريف ١٩٩٧ م .
وقال ميشيل عفلق : « فالإسلام إذن حركة عربية ، وكان معناه : تجدّد العروبة وتكاملها » ويضيف : « إن يقظة العرب اقترنت برسالة دينية ، أو بالأحرى كانت هذه الحركة – الدينية – مفصحة عن تلك اليقظة القومية » .
قلت : ولا أدري ما دور حسن حنفي – وضرباءه – في بعث هذه الآراء ، أو إعادة إنتاجها مرة أخرى ؟.

والتفسير. مع التأكيد على أن هذه التسوية عنده مقصودة، بل إن حديثه منصب في الحقيقة على (القرآن) الكريم نفسه، لأنه تحدث عن النسخ وعن أسباب النزول، ثم ركز بشدة على أسباب النزول بوجه خاص، ومع تسليمنا بطبيعة الحال بأن هذين الأمرين كانا بسبب تنجيم القرآن. أو إن هذا النزول المنجم للقرآن الكريم هو الذي اتسع لهما، كما قلنا قبل قليل.

ولكننا آثرنا أن نشير هنا إلى هذا التفريق بين القرآن والتراث أو بين مستوى الوحي الإلهي الثابت ومستوى الاجتهاد والتنزيل المتغير، أو المتأثر بالواقع؛ لنؤكد **أولاً** على أن الخلط أو التسوية التي قصد إليها الدكتور حنفي مأخوذة أو منتزعة في الحقيقة من الثقافات الوضعية، أو أنها قياس عليها! ولا يزال (الواقع) يشكل في نطاق هذه الثقافات -وفي طليعتها الثقافة الأوروبية كما نلاحظ -مصدر الآراء والنظريات وأساس (التطور) الذي تخضع له هذه الثقافات. وإن كان هذا (التطور) لا يعني دائماً الارتقاء، بل لعله لا يعدو أن يكون في كثير من الأحيان مجرد تبديل وتغيير يلحق بالآراء والنظريات والقيم .. وربما كان اتجاهاً نحو الأسوأ، أو ارتكاساً إلى الخطأ وتراجعاً عن الصواب، أو عن الحق والصواب. كما رأينا في نزعة الإلحاد في القرن الثامن عشر. وفي الماركسية ومعظم مذاهب الوجودية حتى عصر قريب.

إن (الواقع) في هذه الثقافات -وإن شئت قلت(التاريخ)- هو الذي يفرض الفكرة أو يوحي بالمبدأ أو النظرية، أو التي تستنبط منه وتتبلور من خلاله! كما رأينا في قانون الأطوار الثلاثة الذي قال به «كومت» والذي اعتمد فيه على «تاريخ» المعرفة في المجتمع الأوروبي -أي على (واقعها) خلال عصور القوم- وكما رأينا في نظرية ماركس في الاقتصاد، والتي اعتمد فيها، أو انتزعها من «تاريخ» الاقتصاد الأوروبي.. وكذلك الحال في مقولة زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية «دوركهايم» إن الدين ظاهرة اجتماعية نبتت من الأرض ولم تهبط من السماء .. إلخ هذه المقولات والآراء والنظريات التي استعرضنا طرفاً منها في بحث آخر.

إن (الواقع) هو الذي يفرض الفكرة أو يوحي بها عند القوم في الثقافة الوضعية التي لا تعرف الثوابت ، وليس فيها ذلك التفريق الحاسم والمعهود في الثقافة الإسلامية بين مستوى الوحي ومستوى الاجتهاد ، أو (التراث)(١٥) . إن الدكتور حنفي وضرباءه من الباحثين يقومون بعملية قياس -خفي أو ظاهر- للإسلام و(القرآن)! على الثقافة الأوروبية والفكر العلماني أو (الوضعي) .. غير عابئين بالحقيقة الكبرى التي لا تخطئها العين في الثقافة الإسلامية، وهي أن (الواقع) لابد له أن يخضع للنص أو الوحي ، أو أنه لابد من تغييره أو تعديله باتجاه التوافق مع (الحكم) أو (الواقع) المنشود أو المطلوب! إن أسباب النزول -والنسخ- يأتيان في هذا السياق لا في سياق أسبقية الواقع على النص ، أو تحكمه فيه!! ولا ندري، في مثال الشورى الذي تحدثنا عنه ، لماذا لم ينزل الوحي ناعياً أو منتقصاً من قدرها بحجة (واقع) الهزيمة الذي أفرزته؟!

كما يأتي كل من النسخ وأسباب النزول كذلك في سياق خصوصية تاريخية لن تُعاد مرة أخرى! لأن جيل التنزيل هو الجيل الذي عبر به القرآن الكريم من أوضاع الجاهلية إلى أحكام الإسلام، وانتقل به من جميع ملابسات الشرك إلى كافة آفاق التوحيد حتى حقق به ذلك الجيل النموذج أو الجيل المثال الذي يُحتذى إلى يوم الدين. وقد أدى النسخ وأسباب النزول وظيفتهما في ذلك، بوصفهما رعاية لهذا الجيل الفريد الذي ليس له نظير في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الإنسان!

خامساً : التنجيم والتربية بالنسخ

لقد كان **النسخ** بالنسبة لهذا الجيل واحداً من أهم وسائل التربية والإعداد .. في بناء شخصيته على الصعيد الفردي ، وفي مواجهته -كأمّة ومجتمع- مع الجاهلية العربية وسائر المجتمعات الأخرى في الأمم والشعوب،

---

(١٥) راجع بحث : الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة للأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي . كلية الإنسانيات ، بجامعة قطر ، ص ٥٠ .

أو في نقل أبناء عصر التنزيل من الجاهلية إلى الإسلام، ولهذا فقد جاء مرة نسخاً مباشراً، وجاء مرة أخرى على مراحل، وهو ما عرف عند كثير من العلماء بالتدرج في التشريع. وكان هذا في الأمور المتمكنة من الأفراد وفي المجتمع، بحيث يحتاج اجتثاثها أو التعفية على آثارها إلى وقت ليس بالقصير. أي إن تخلي المجتمع عن مفاسده وشروره تم بواسطة هذا التدرج، وبعمق لم يشهد له التاريخ مثيلاً من قبل.

فإن قيل: إن (واقع) أي جيل آخر بعد جيل التنزيل -والواقع المعاصر على سبيل المثال- يمكن أن يطلب النسخ، أو بات يطلبه لأنه يمكن أن يؤدي فيه هذه الوظيفة التربوية مرة أخرى.. لأن انحدار الناس في أسباب الحياة الجاهلية ممكن أو هو حاصل في كل عصر!.

قلنا: إن لجيل التنزيل اعتباراته الخاصة التي لن تتكرر، لأنه الجيل الوحيد الذي لم يعرف الفرق بين ما نسمّيه اليوم في مصطلحاتنا الثقافية والسياسية: «النظرية والتطبيق» في الوقت الذي (نزل) القرآن يحمل خطاباً (إنسانياً) موجهاً لأي واقع أو لكل واقع، وهو الذي يقابل في ثقافات الأمم ما نسميه (النظرية) النابعة من الأرض، أو من التجربة الإنسانية وحدود الزمان والمكان. وفحوى ذلك أن النسخ الذي عمل عمله في إعداد جيل التنزيل -والقرآن لن يتكرر نزوله!- لا معنى لوجوده بعد ذلك العصر بعد أن قدم ذلك الجيل: النموذجَ أو المثال؛ حتى بات في وسع سائر الأجيال أن تتربى بالقدوة أو بالاحتذاء بذلك الجيل، فكأن التربية بالنسخ بالنسبة لجيل التنزيل يقابلها التربية بالقدوة بهذا الجيل في حق سائر الأجيال. ويمكننا القول في هذا السياق إن مسألة النسخ هي من قبيل ما نسميه اليوم بالأحكام الانتقالية ، لأن هذه الأحكام جاءت في مرحلة انتقال المجتمع (الإنساني) ورحلته المكينة من الجاهلية إلى الإسلام. وغني عن البيان أن الأحكام الانتقالية استثناء موقوت، وليست حالة ثابتة مستمرة. على أن الدقة العلمية تفرض علينا أن نميز -في الاعتراض أو

الزعم المذكور– بين صورتين ؛ بغض النظر عن رأينا في موضوع النسخ بجملته!

الأولى : صورة المطالبة بإعادة الاعتبار للحكم –القرآني– المنسوخ، أو الدعوة (في ضوء واقع الأمم والشعوب التي ندعوها للإسلام) إلى عدم عدّه منسوخاً، وإنما عده حكماً مرحلياً سوف يعبره أي مجتمع –يحمل سمات المجتمع الذي شهد التنزيل– إلى مرحلة الحكم القرآني التالي أو الحكم الجديد.

أما **الصورة الثانية** فهي المطالبة بنسخ جديد يطال حتى أحكام القرآن الناسخة أو النهائية. ونعتقد أن حديث الدكتور حنفي عن (الواقع) وتأكيده على أسبقية الواقع على الفكر، يدل على أن هذه الصورة هي المرادة من هذا الحديث! مع شديد الأسف!!

ونحن في الوقت الذي ندع الباب مفتوحاً أمام المجتهدين للنظر في الصورة الأولى، وبخاصة في الأحكام المتعلقة بالمجتمع والدولة، وعلاقتهما بالمجتمعات الأخرى –وهو الأمر الذي لا يلغي توظيف التنجيم أو الإفادة من البعد الزماني للتنزيل في أي عصر–(١٦) ؛ فإننا ننظر إلى الصورة الثانية على أنها تمثل جهلاً بطبيعة أحكام القرآن التي جاءت مفصّلة على الإنسان، خارجاً من إطار الزمان والمكان، أو التي نزلت موجهة لكل (واقع): حاكمة عليه، ومؤثرة فيه، وليس العكس. بمعنى أن (الواقع) هو الذي يجب أن يخضع للوحي أو النص، أو لابد من تغييره باتجاه التوافق مع الحكم أو (الواقع) المطلوب! مع تأكيدنا مرة أخرى على أن هذه الصورة مأخوذة أو منتزعة في الحقيقة من الثقافات (الوضعية) كما قلنا

(١٦) قال الإمام الزركشي : « ما لهج به كثير من المفسّرين في الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف قول ضعيف، فهو من المنسأ – بضم الميم – بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، ليس بنسخ، إنما النسخ : الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً » قال : « ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام : (عليكم أنفسكم) كان ذلك في بدء الأمر، كما قال الرسول : (وسيعود غريباً كما بدأ) فإن الحكم يعود، فليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة، بل كلّ منهما يجب امتثاله في وقته » . قلت : وفحوى هذا الرأي السديد أن آية السيف التي قال كثير من العلماء إنها نسخت بضع عشرة ومائة آية !! لم تنسخ آية واحدة. البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤٢.

قبل قليل. وفي الفقرة التالية التي نتحدث فيها عن أسباب النزول: مزيد من البيان، أو فيها الكلمة الفصل، لأن وقوع (أسباب النزول) محل إجماع، بوصف القرآن الكريم قد دلّ عليه وأشار إليه. في حين أن وقوع النسخ -بمعنى رفع الحكم بحيث لا يجوز امتثاله أبداً- يبقى عندنا موضع نظر. والذي قدمناه في تفسيره رداً على الدكتور حنفي نظرنا فيه إلى رأي جمهور العلماء القائل بوقوعه في القرآن. وبهذه المناسبة فإن الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة: ١٠٦) على وقوع النسخ في القرآن، ليس بصحيح، لأن الآية جاءت في سياق الرد على المشركين وأهل الكتاب، واستنكارهم أن ينزل الله تعالى شريعة تنسخ سائر الشرائع، وأن يوحي بكتاب ينسخ ما تقدم من الكتب. وعلى هذا، فإن معنى الآية الكريمة أنه قد تم نسخ شرائع هؤلاء انتقالاً إلى الخيرية أو إلى ما هو أعلى، وصولاً إلى الشريعة (الإنسانية) التي لا نسخ فيها. ومعنى المثلية -على هذا التفسير- مثلية الصلاح لقوم آخرين. ولهذا جاء في الآية قوله تعالى: (نُنْسِها) حيث يتقادم العهد على تلك الشريعة حتى تنسى، ويبعث الله تعالى بشريعة مثلها إلى قوم آخرين في زمن آخر. والله أعلم.

سادساً: التنجيم وأسباب النزول

إن (أسباب النزول) لا تعني بدورها أن الوحي نزل حسب متطلبات الواقع، أو أن الواقع يسبق الفكر.. إلخ هذه المزاعم، وذلك للأسباب التالية:

١ - إن أسباب النزول لم تستوعب الكتاب الكريم حتى نقول إن (واقع) المجتمع المكي أو المدني في القرن السابع الميلادي هو الذي تحكم في نزول القرآن أو كان الحاكم على (النص)، علماً بأن مثل هذا الزعم يحمل في طياته إنكار عموم القرآن وخلوده، أو شموله للزمان والمكان.. وبخاصة إذا أضفنا إلى ذلك: الإشارة إلى النسخ بصورته الأخيرة التي تحدثنا عنها قبل قليل.

إن معظم آيات القرآن الكريم نزلت ابتداءً، أي بدون سبب نزول خاص

أو معيّن، أو بلا أسباب ومقتضيات من الواقع، ويدخل في ذلك آيات الإيمان والاعتقاد وآيات الكون والطبيعة ، وسائر آيات العهد المكي بموضوعاتها الرحبة والمتعددة :(الكون والطبيعة -الإنسان- التاريخ) . علماً بأن بعض آيات هذا الجانب نزلت فهدمت (الواقع) القائم وأقامت على انقاضه بناء شامخاً يأوي إليه (الإنسان) في جميع العصور؛ وبعضها الآخر (أسس) معارف جديدة ليست مرتبطة (بواقع) معين! سواء أكان واقع عصر النزول أم غيره! (مظاهر خلق الطبيعة ، وتسخير السنن، وخلق الإنسان ، وحياة الأنبياء، وتاريخ الأمم والأقوام . . .) وفي كلتا الحالتين فإن من سوء الفهم والقصد معاً أن يقال :« إن الوحي نزل حسب متطلبات الواقع، أو كما يقول علماء الأصول : طبقاً لأسباب النزول وتبعاً لإمكان تقبله! » أي واقع؟ وأية متطلبات؟ إن القرآن الكريم موجه للواقع -أي واقع أو كل واقع- ومؤثر فيه، وحاكم عليه .

٢ – معظم الآيات التي كان لها سبب نزول خاص لا تعدو أن تكون بعضاً أو طرفاً من آيات الأحكام، أو الجانب التشريعي في القرآن الكريم، علماً بأن آيات هذا الجانب جميعها لا تزيد في القرآن عن مئتي آية . والناظر في الروايات التي وردت في أسباب النزول يمكنه ملاحظة أن ما يعتد به من هذه الروايات عند المحدّثين قليل! مع الإشارة إلى ضرورة تحديد المراد بسبب النزول والتدقيق في فهم عبارات المفسّرين والشراح حوله من أجل الوقوف على ما يمكن عدّه من هذا الباب وإخراج ما ليس منه .

٣ – هذا القدر نفسه يمكن عده أمثلة أو شواهد على مدى الواقعية في هذه الأحكام والتشريعات بمعنى نفي الطوباوية عنها أو نفي المثالية التي ليست أكثر من رؤيا في عالم الخيال، أو رسماً على الورق أو في الفراغ، كما فعل صاحب المدينة الفاضلة وبعض الفلاسفة الآخرين على سبيل المثال!

ولهذا فإن المرء حين يتأمل هذا القدر يجد أنه قام على بيان أحوال نابعة من طبيعة الإنسان، أو بعبارة أدق « مفصّلة عليه » بغض النظر عن

ملابسات الزمان والمكان والأشخاص .. القرنُ السابع الميلادي في ذلك كالقرن الحادي والعشرين .. وإنسان الجزيرة العربية قبل خمسة عشر قرناً كأي إنسان آخر في كل زمان ومكان . أي إن القرآن الكريم قدم في ذلك (نماذج إنسانية) وصورة ما يجب أن تكون عليه هذه النماذج إلى يوم الدين . ومن هنا جاءت عبارة علماء أصول الفقه المشهورة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٤ - وفي وسعنا أن نفهم سبب نزول بعض الآيات -في ضوء هذه الملاحظات- على أنه المناسبة أو مجرد المناسبة التي استدعت ظهور الحكم أو تنزيله ووضعه موضع التنفيذ ، أي بداية توقيت العمل به ... في نسق هدم أوضاع الجاهلية ، وبناء أحكام الإسلام في النفس والمجتمع .. يوماً بعد يوم ، أو طيلة عصر التنزيل ، بمعنى أن الإسلام ارتقى بالجماعة الإسلامية الأولى -بوصفها النموذج الإنساني- إلى الحد الذي كان يستدعي نزول أحكام جديدة .. ولهذا فإن جزءاً كبيراً من هذه الأحكام نزل مصدراً بقوله تعالى :﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أي إن الأمر ارتقى إلى أن صار حديث المجتمع وموضع سؤال الناس . وغني عن البيان أن أحداث السيرة النبوية ووقائع حياة الجماعة الإسلامية الأولى التي شهدت التنزيل ليست داخلة في نطاق أسباب النزول بهذا المفهوم أو بمفهوم (الواقع) الذي قيل فيه ما قيل! لأنها قضية تسجيلية في المقام الأول ، أقرب ما تكون إلى حديث القرآن الكريم عن تاريخ الأنبياء والأمم السابقين ،وما تضمنه من دروس وعبر ، وأشار إليه من دلالات .

٥ - وحين تناولت الآيات الكريمة من هذه الأحداث والوقائع جوانب أخرى متصلة (بالواقع) ، بالمعنى المشار إليه أو المتحدث عنه ، لم يأت هذا التناول استجابة للواقع أو تبريراً له ، ولكنه جاء -كما قلنا- تصحيحاً وتقويماً لحركة التطبيق والتنفيذ . بل يمكن القول إن أحداث السيرة بوصفها جزءاً من التاريخ ، واكبت الوحي ومشت في ركابه طيلة عصر التنزيل

الذي نتحدث عنه ، كدليل على أن (الوحي) هو الذي صنع (التاريخ) أو هو الأساس والمنطلق في ذلك. وإن شئت قلت: كدليل على أن (النص) هو الفاعل أو المؤثر في (الواقع) وليس العكس!

ولا يتسع المجال هنا لبسط القول في النقطة التي توضح العلاقة بين النص أو (النظرية) أو الثقافة -بمعناها الواسع- والتاريخ على الصعيد الإسلامي- وليس الأوروبي- والتي لم تقتصر على الفكرة القائلة : إن الثقافة (النظرية أو الوحي) هي التي صنعت التاريخ، بل التي أضفنا إليها ما قلناه قبل قليل من أن (التاريخ) واكب أيضاً (الوحي) ومشى في ركابه طيلة عصر التنزيل أو في ظل مبدأ تنجيم القرآن؛ وذلك من أجل تصحيح وقائعه، أو تصويب حركة التطبيق والتنفيذ! فكيف يقال بعد هذا: إن الواقع هو المتحكم في الوحي؛ إن اشتد اشتد الوحي ، وإن تراخى تراخى معه!! لقد أبعد هذا الرأي الفاسد عن الحقيقة أو خالف (الواقع)! مرتين لا مرة واحدة !

ونؤكد مرة أخرى على أن هذا الزعم مأخوذ أو منتزع في الحقيقة من الثقافات الوضعية! أو جاء قياساً عليها! لأن الثقافة الأوروبية إذا ما قوبلت بالثقافة الإسلامية في هذا الباب وجدنا أن علاقة كلٍ منهما بالواقع أو التاريخ مختلفة، حتى ليمكننا القول إننا أمام ثقافتين: واحدة صنعت التاريخ (أو الواقع) وهي الثقافة الإسلامية. وأخرى صنعها التاريخ ، وهي الثقافة الأوروبية كما أوضحنا ذلك في بحث آخر(١٧).

سابعاً : التنجيم والدلالة على مصدر القرآن

أشرنا في الفقرة (أولاً) إلى أن من حكم تنجيم نزول القرآن: الدلالة على إعجازه وإثبات مصدره. وفي وسعنا الآن أن « نؤكد » هذه الحكمة، لا بدليل اتساق القرآن وعدم اختلافه في الأسلوب والمضمون، على الرغم من نزوله واستكمال بنائه خلال فترة النزول الطويلة هذه، -كما أوضحنا في الفقرة (ثانياً)- ولكن -هذه المرة- بدليل وقوع الأحداث والنّذر والبشائر

(١٧) راجع بحثنا : التاريخ بين ثقافتين : حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر . العدد الثامن ١٩٩٠ م .

على النحو الذي تحدث عنه القرآن وأشار إليه طيلة عصر التنزيل، أو بعبارة أدق: بدليل انقضاء مدة النزول أو التنجيم على هذه الأحداث والبشائر، وعلى سائر وعود القرآن وإيعاداته من غير خُلف أو اختلاف! وغني عن البيان أنه لولا النزول المنجم لما وقفنا على هذا الدليل من أدلة إثبات مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

ألم ينزل القرآن الكريم يقول في شأن أبي لهب: ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (سورة المسد: ٣) فبقي أبو لهب على كفره فيما استقبل من فترة نزول القرآن –أو من مدة التنجيم– حتى وافاه الأجل! وقد كان في وسعه، سياسة أو نفاقاً أو حتى «إحراجاً» للنبي عليه السلام، أن يقول إنه دخل في الإسلام! فكيف يحكم عليه محمد ﷺ بأنه سيبقى على كفره، وأنه سوف يرد النار يوم القيامة. إنه بدون ريب الوحي الإلهي القاطع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. أليس في مثل هذا الحكم على المستقبل، هنا وفي قوله تعالى في شأن الوليد بن المغيرة على سبيل المثال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (سورة المدّثر: ٢٦) ما يشير إلى أن هذا كله من شأن من بيده مفاتيح الهداية والإيمان، وأزمّة الأفئدة والعقول، جل شأنه؟

وأخيراً، فإننا إذا نظرنا إلى مثل هذه المواقف في ضوء مسألة (الواقع) التي تحدثنا عنها قبل قليل، فهل يمكن القول: إن هذا الحكم كان استجابة للواقع؟ ومن الذي استجاب لهذا الواقع: (الوحي) أم محمد ﷺ؟ أما الوحي فقد نزل به الحكم القاطع! وأما محمد ﷺ فإنه لم يكن من وجهة نظر السياسة (والواقع) أي من جهة حرصه على إيمان قومه، أو طمعه في إيمانهم أياً كانت درجة عداوتهم له ولما جاء به.. لم يكن مستعداً من هذه الوجهة، ولا من الوجهة النفسية – وقد بدأ بإعلان دعوته على الملأ من قريش – أن يواجه أبا لهب بمثل هذا الموقف، أو الإعلان المخيف.

وتبقى قضية البعد الزماني لنزول القرآن ومسألة النص والواقع جديرة بالمزيد من التأمل والمتابعة والدرس. والله تعالى أعلم.

المراجــع

١ – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، تعليق وتقديم محمد شريف سكر ، ط ١ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .

٢ – البرهان في علوم القرآن للزركشي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٣ – تراث الإسلام . إعداد جمهرة من المستشرقين بإشراف « سير توماس آرنولد » عرّبه وعلق عليه جرجيس فتح الله . دار الطليعة ، ط ٣ بيروت ١٩٧٨ م .

٤ – التراث والتجديد (موقفنا من التراث القديم) للدكتور حسن حنفي ط ١ دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ م .

٥ – الثقافة الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي . بحث قدم لندوة (الثقافة العربية : الواقع وافاق المستقبل) كلية الإنسانيات – جامعة قطر ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .

٦ – الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين المباركفوري . منشورات رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .

٧ – في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله ، الطبعة الرابعة – دار الشروق ١٩٧٧ م .

٨ – قضايا معاصرة للدكتور حسن حنفي ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ م .

٩ – مدخل إلى القرآن والحديث للدكتور عدنان محمد زرزور ، المكتب الإسلامي ، ط ١ / ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م بيروت .

١٠ – مناهل العرفان للزرقاني ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ٣ ، القاهرة .

١١ – النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ .

١٢ – النسخ في القرآن الكريم ، للدكتور مصطفى زيد ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٣٨٣ هـ .